أبحاث

مناسبة القصص القرآني لمقاصد السور
قصة يونس عليه السلام أنموذجا

إعداد: د. مريم نافل الدويلة
أستاذ مشارك بقسم التفسير والحديث
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

الملخص:

تهدف الدراسة إلى الكشف عن المناسبة الحادثة بين القصة والمقصد العام للسورة، وبيان أهمية ذلك في تماسك أجزاء السورة الواحدة، باعتبار أن لكل سورة شخصية مميزة مستقلة عن غيرها؛ لذا تناولت الحديث عن تعريف المناسبة، والقصة، والمقصد العام للسورة.

ثم تناولت في الجانب التطبيقي أحداث قصة يونس -عليه السلام، حسب ترتيب ورودها في المصحف، مبينة مناسبة القصة لما قبلها وما بعدها من الآيات، وكذلك مناسبتها لمقصد السورة العام، وأحسب أنها قد أماطت اللثام عن بعض الفوائد، والنكت، واللطائف البلاغية.

وخلصت الدراسة إلى عدة نتائج، منها: أن القصة القرآنية في القرآن إنما ترد في السورة؛ لتؤدي وظيفة فيها، فقصة يونس -عليه السلام- بأحداثها وتوزيعها كانت مقدرة ومفصلة على مقاصد السورة وسياقاتها. أن لكل سورة في القرآن شخصية تميزها عن غيرها من السور، ولها مقصد عام ترجع إليه جميع المعاني

الواردة فيها.

كما أبانت الدراسة عن أهمية معرفة السياق الذي وردت فيه القصة، ودور خصائص النظم القرآني في الكشف عن أسرار بلاغة ألفاظ القصة ومناسبتها لمقصد السورة.

الكلمات المفتاحية: التفسير، القصة، المناسبة، مقصد السورة.

Abstract:

This study aims at examining the relevance between the story and the general purpose of the surah and its importance in the consistency of the parts of one surah, given that each surah has an independent distinctive personality, so I discussed the definition of the relevance, story and general purpose of the Surah.

Then the practical part dealt with the events of the story of Prophet Yunus (PBUH) according to their order in the Qur'an, with clarification of the relevance of the story to what came before and after the verses, as well as its relevance to the general purpose of the Surah.

Key words: Interpretation, Story, Corresponding, Surah destination.

المقدمة:

إن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد اشتمل القرآن على قصص كثيرة، وصفها الله -تعالى- بأنها أحسن القصص، قال -تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ (يوسف:٣)، وعند التأمل في هذه القصص نجد أن هناك تناسبًا بينها وبين مقصد السورة، ولذلك أحببت طرق هذا الموضوع من خلال هذا البحث الموسوم: «**مناسبة القصص القرآني لمقاصد السور: قصة يونس -عليه السلام- أنموذجًا**».

أهمية الموضوع:

تظهر أهمية الدراسة في دقة استعمال القرآن الكريم القصة في الموضع

المناسب لها في السورة، وفق ألفاظ معينة محددة تظهر من خلالها مناسبتها لمقصد السورة عند التأمل والنظر، ومن هنا تظهر أهمية هذه الدراسة، حيث تبرز جانبًا من جوانب الإعجاز البياني من خلال إثبات ما لهذه السورة من استقلال في الشخصية، وتميز بعضها عن بعض حتى في انتقاء القصص، والمفردات المناسبة لها.

مشكلة الدراسة:

تتمثل إشكالية البحث في بيان نوع من أنواع المناسبة في القرآن الكريم، وهي المناسبة بين الحادثة في القصة والسورة التي وردت فيها من الجانب المقاصدي، ويمكن التعبير عنها بالأسئلة الآتية:

- هل لورود القصة في القرآن الكريم وتوزيعها على بعض سوره مناسبة بالمقصد العام لكل سورة؟
- ما وجه مناسبة القصة لما قبلها وما بعدها من الآيات في السورة؟
- ما مضمون دعاء يونس -عليه السلام- الذي كان سببًا لإنجائه من بطن الحوت ومناسبته لمقصد السورة؟
- ما سبب وصف يونس -عليه السلام- في سورة «الأنبياء» بـ(ذي النون)، على حين وصف في سورة «القلم» بـ«صاحب الحوت» ومناسبة ذلك لمقصد السورة؟

أهداف البحث:

١- إبراز أهمية النظر إلى الوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم لاستخراج مقصد السورة.

٢- الكشف عن مناسبة مقصد السورة للقصة من خلال تتبع معانيها، والربط بينها وبين مقصدها العام.

٣- الإسهام في إبراز أهمية دراسة القصص القرآني في جانب من جوانبه، وهو المتعلق بالمقصد، بوصفه سرًّا من أسرار البيان القرآني.

٤- حصول الامتثال والاتعاظ من القصص القرآني مع تجلي مقاصد السور الواردة

فيها.

٥- إبراز منهج القرآن الكريم في تكرار القصص، ومدى مناسبتها لمقصد السورة.

الدراسات السابقة وما يضيفه البحث إليها:

لم أعثر- بحسب اطلاعي- على دراسة مستقلة تناولت موضوع: «مناسبة القصص القرآني لمقاصد السور: قصة يونس -عليه السلام- أنموذجًا».

وهناك دراسات متعلقة بمقاصد السورة عمومًا، أو قصة يونس، وأهمها:

- «مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» للإمام البقاعي.

- "أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم" للدكتور عبد الله شحاتة.

- «أصول الاعتقاد في سورة يونس -عليه السلام» لقذلة بنت محمد بن معيض، رسالة ماجستير، ١٩٩٤، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

- «يونس عليه السلام ودعوته في ظل القرآن الكريم والسنة» لعبد المحسن قاسم، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، ١٩٨٠م.

وهذه الدراسات لم تتناول العلاقة بين القصة ومناسبتها لمقصود السورة؛ ولذلك آمل أن يسهم هذا البحث في إظهار أسرار القصة في القرآن الكريم من الناحية المقاصدية، من خلال تتبع معانيها، والربط بينها وبين المقصد العام للسورة.

حدود البحث:

يرتكز محور الدراسة على مناسبة ورود قصة يونس -عليه السلام- في سورة «الأنبياء»، و«الصافات»، و«القلم» من الناحية المقاصدية.

منهج البحث:

يجمع البحث بين المنهجين الآتيين:

- **المنهج التحليلي:** وهو المنهج الأساس الغالب في الدراسة، من خلال الاهتمام بخصائص نظم القصة، ودقائقها اللفظية والتركيبية الكاشفة عن بلاغة هذه المناسبة.

- **المنهج الاستنباطي:** ويتمثل في تلمس مقصود السورة الذي ترتبط به القصة.

خطة البحث:

جاء البحث محتويًا على: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

المقدمة: ذكرت فيها أهمية الموضوع، وأهداف البحث، والدراسات السابقة، وحدود البحث، ومنهجه، وخطته.

التمهيد: تعريف المناسبة والقصة ومقاصد السور.

المبحث الأول: مناسبة قصة يونس -عليه السلام- الواردة في سورة «الأنبياء» لمقصدها العام.

المبحث الثاني: مناسبة قصة يونس -عليه السلام- الواردة في سورة «الصافات» لمقصدها العام.

المبحث الثالث: مناسبة قصة يونس -عليه السلام- الواردة في سورة «القلم» لمقصدها العام.

الخاتمة: النتائج، والتوصيات.

فهرس المصادر والمراجع.

التمهيد

أولًا: تعريف المناسبة لغة واصطلاحًا:

المناسبة لغة: من النسب.

يقول ابن فارس: «النون، والسين، والباء كلمة واحدة، قياسها اتصال شيء بشيء، ومنه النسب، سُمي لاتصاله، وللاتصال به. والنسيب: الطريق المستقيم؛ لاتصال بعضه ببعض»[١].

والمناسبة بمعنى «المشاكلة، والمشابهة، يقال: بين هذين الشيئين مناسبة، وتناسب. أي: مشابهة، وتشابه»[٢].

تعريف المناسبة اصطلاحًا:

يستعمل مصطلح المناسبة في علم التفسير لبيان الترابط بين آيات القرآن وسوره.

يقول البقاعي: «علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة»[٣]، وقريب من هذا ما أورده الزركشي، فيقول: «المناسبة أمر معقول، إذا عرض على العقول تلقته بالقبول»[٤].

من هنا يعلم أن موضوع هذا العلم هو بيان أوجه تناسب سور القرآن الكريم وآياته، وكيف أن بعضه آخذٌ بعناق بعض في تأليف محكم متين.

ثانيًا: تعريف القصة في القرآن الكريم:

تعريف القصة لغة: «القصة مشتقة من القص، والمصدر يدل على تتبع الأثر، ومنه قوله -تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾ [الكهف: ١٤]. أي: رجعا من الطريق الذي سلكاه يقصان الأثر، والقِصص جمع: قِصة، وهي الأمر،

---

(١) «مقاييس اللغة»، لابن فارس، (٥/ ٤٢٤).

(٢) انظر: «لسان العرب»، لابن منظور، (٢/ ٢٥٣).

(٣) «نظم الدرر»، للبقاعي، (١/ ٥).

(٤) «البرهان في علوم القرآن»، للزركشي، (ص ٣٦).

والشأن، والذي يكتب، والقَصص: الأخبار المتتبعة»[1].

ويعلم من هذا أن ذكر الأخبار السالفة يسمى قَصًّا؛ لأنه مأخوذ من قص الأثر، أي: تتبع آثارهم، وتتبع الخبر هو قص له، قال -تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٢].

تعريف القصة اصطلاحًا: «هي حديث من القرآن الكريم، ينبئ عن آثار الغابرين، ويحكي أحداثًا ماضية من أجل العِظة والاعتبار»[2].

ثالثًا: تعريف مقاصد السور:

المقاصد لغة: جمع مقصد، يرجع أصلها إلى « (ق ص د)، وهي بمعنى إتيان الشيء وأمّه»[3].

قال ابن جني: «أصل مادة (ق ص د) ومواقعها في كلام العرب: الاعتزام، التوجه، والنهود، والنهوض نحو الشيء، هذا أصله في الحقيقة»[4]، و«مقصد الكلام: مدلوله، ومضمونه»[5].

نتبين مما سبق أن مادة قصد تدور حول التوجه نحو الشيء بعزم، وهو: «العمدة الذي يتجه إليه الكلام، ويرجع إليه»[6].

تعريف مقاصد السور اصطلاحًا:

بناءً على التعريف اللغوي للمقصد «يمكن أن نحدد مقصد السورة بأنه: مغزى السورة الذي ترجع إليه معاني السورة ومضمونها، وإذا تبين هذا فيمكن أن نعرف علم مقاصد السور بأنه: «علم يعرف به مغزى السورة الجامع لمعانيها

---

(١) انظر: «بصائر ذوي التمييز»، للفيروزآبادي (٤/ ٢٧١).

(٢) انظر: «البيان القصصي في القرآن»، لإبراهيم عوضين، (ص ١٨).

(٣) «مقاييس اللغة»، لابن فارس، (٥/٩٥).

(٤) «لسان العرب»، لابن منظور، (٣/ ٣٥٥).

(٥) «معجم اللغة العربية المعاصرة»، لأحمد مختار، (٢/ ١٦١٧)، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٩هـ.

(٦) «علم مقاصد السور»، لمحمد الربيعة، (ص ٧).

ومضمونها»[١].

أقول: ولو قيل بأن مقصد السورة: الموضوع العام الجامع بين موضوعات السورة؛ لكان أوضح.

ومن هنا يعلم أن مقصد السورة موضوعه مأخوذ من «التحام موضوعات السورة القرآنية وتماسك بنائها واتساق معانيها لخدمة مقصود واحد»[٢].

(١) «علم مقاصد السور»، لمحمد الربيعة، (ص ٣).

(٢) «وحدة النسق في السورة فوائدها وطرق دراستها»، لرشيد الحمداوي، ص(١٤٠).

المبحث الأول

مناسبة قصة يونس –عليه السلام– الواردة في سورة «الأنبياء» لمقصدها العام

وفيه مطلبان:

المطلب الأول

المقصد العام للسورة

مقصد السورة هو: بيان وحدة الرسالات من خلال التذكير بحال الرسل، ودعوتهم إلى توحيد الله –تعالى– وعبادته، وعناية الله –تعالى– بهم.

يقول أبو زهرة: «وصلبها الدعوة إلى التوحيد، وما لقيه النبيون في سبيل هذه الدعوة التي هي الحق، وضلال من يعاندها»(١).

والمقصد العام للسورة نجده حاضرًا عند الوقوف على أهم الموضوعات التي اشتملت عليها السورة، وهي:

١- **الإنذار بالبعث وتحقق وقوعه**، قال –تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١]، وإقامة الحجة عليه بخلق السموات والأرض وما بينهما عن عدم، قال –تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧﴾ [الأنبياء: ١٦-١٧].

٢- **الحديث إلى الكفار الذين يواجهون الرسول ﷺ بالسخرية والاستهزاء، بينما الأمر جد، وحق**، ويلفتهم إلى ما أصاب المستهزئين بالرسل قبلهم؛ قال –تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٤١﴾ [الأنبياء: ٤١].

ثم يوجه الله –تعالى– رسوله ﷺ إلى بيان وظيفته، وإلى الخطر الذي يتهددهم في غفلتهم: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ

(١) «تفسير زهرة التفاسير»، لأبي زهرة، (٩/ ٤٨٢٤).

﴿٤٥﴾ [الأنبياء: ٤٥].

٣- استعراض مجموع قصص جماعة من الأنبياء -عليهم السلام، وفيها تتجلى وحدة الرسالة والعقيدة، كما تتجلى رحمة الله بعباده الصالحين، وأخذ المكذبين، قال -تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٢]، وفي ذلك «إقامة الحجة على المشركين بالدلائل العقلية، والإقناعية، والزجرية، ثم بدلائل شواهد التاريخ، وأحوال الأمم السابقة الشاهدة بتنظير ما أوتيه النبي ﷺ بما أوتيه سلفه من الرسل والأنبياء، وأنه ما كان بدعا من السل في دعوته إلى التوحيد»[1].

٤- الحديث عن سنة من سنن الله التي لا تتخلف، وهي أن العاقبة للمؤمنين في خير الدنيا والآخرة، قال -تعالى: ﴿ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٦]، وقال -تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٩].

هذا، ولما افتتحت السورة الكريمة بذكر حال المكذبين عند مجيء الإنذار قال -تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء: ١]؛ ختمت بموقف المنذر لهم -عليه الصلاة والسلام، قال -تعالى: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، وهكذا تجتمع موضوعات السورة على بيان وحدة الرسالات من خلال التذكير بحال الرسل ودعوتهم إلى توحيد الله، وعناية الله -تعالى- بهم.

وبعد أن استعرضنا أهم موضوعات السورة التي تنصب في مقصد السورة سيتضح لنا بعد ذلك، مناسبة قصة يونس -عليه السلام- لمقصد سورة الأنبياء

---

(١) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٣٠/١٧).

المطلب الثاني

مناسبة قصة يونس -عليه السلام- الواردة في سورة الأنبياء لمقصدها

قال -تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾[سورة الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

مناسبة قصة يونس -عليه السلام- لما قبلها:

لما حفظ الله -تعالى- الأنبياء -عليهم السلام- السابق ذكرهم، وأجاب دعاءهم بعد الضيق والصبر، قال -تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦﴾ [الأنبياء: ٨٣- ٨٦] أتبعهم بما هو أغرب حالًا منهم في الحفظ، فقال -تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾.

مناسبة قصة يونس -عليه السلام- لما بعدها:

«لما كان حاصل أمر يونس -عليه السلام- أنه خرج من بطن لم يعهد الخروج من مثله عطف عليه قصة زكريا -عليه السلام- في هبته له ولدًا من بطن لم يعهد الحمل من مثله من العقم واليأس، قال -تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠]، فدل ذلك على عناية الله -تعالى- وحفظه لأنبيائه الذين أخلصوا الدعاء لله -عز وجل- بعد تسليمهم المطلق، والرضا التام بقضائه وقدرته، فأصبحوا بذلك قدوة حسنة للخلق في صدق التوجه لله الذي لا رب سواه"[١].

(١) نظم الدرر، للبقاعي (١٢/ ٤٦٨).

مناسبة قصة يونس -عليه السلام- لمقصد سورة «الأنبياء»:

الغرض من قصص القرآن الاعتبار بها، كما قال -تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١]، وليس الغرض منها يقتصر على السرد والمؤانسة، «وتجديد النشاط، وما يحصل من استغراب مبلغ تلك الحوادث من خير أو شر ...، بل الغرض من ذلك أسمى وأجل، إن في تلك القصص لَعِبرًا جمة، وفوائد للأمة، ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها»(١)، ولذلك لم تأت قصة يونس -عليه السلام- في القرآن في موضع واحد كما يكون كتاب تاريخ، بل كانت موزعة لتخدم مقصد السورة وأغراضها، ولذا نلحظ من خلال التدبر في قصة يونس -عليه السلام- في سورة الأنبياء أنها ذكرت في آيتين اثنتين وردتا في سياق محن بعض الأنبياء -عليهم السلام، واستجابة الله -تعالى- لهم بعد طلبهم الدعاء، وقد خصت هاتان الآيتان محنة يونس -عليه السلام- وهو في بطن الحوت واستغاثته بالله -تعالى، واستجابة الله -تعالى- له؛ فكانت برهانًا، وتبيانا لمقصد السورة العام قال -تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ﴾؛ أي: «اذكر يا محمد ذا النون، يعني: صاحب النون، والنون: الحوت، وإنما عني بذي النون يونس بن متى»(٢).

﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾. أي: «مغاضبًا قومه من أجل كفرهم به، وعصيانهم له»(٣)، يقول ابن جزي: «أدركه ضجر منهم، فخرج عنهم، ولذلك قال الله -تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾[القلم: ٤٨]، ولا يصح قول من قال: مغاضبًا لربه»(٤).

﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾. أي: فظن يونس -عليه السلام- أن لن «نضيق

(١) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (١/ ٦٤) باختصار.

(٢) «جامع البيان»، للطبري، (١٦/ ٣٧٣).

(٣) «أضواء البيان»، للشنقيطي، (٤/٢٤٠).

(٤) «التسهيل»، لابن جزي، (٢/٢٨).

عليه في بطن الحوت ...» –، وقال عطية العوفي: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾. أي: يقضي عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير»(١).

يقول الشنقيطي: «وقوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ فيه وجهان من التفسير، لا يكذب أحدهم الآخر:

الأول: أن المعنى: ﴿لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾. أي: لن نضيق عليه في بطن الحوت، ومن إطلاق «قدر» بمعنى: «ضيق» في القرآن قوله –تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]؛ أي: ويضيق الرزق على من يشاء.

الوجه الثاني: أن معنى ﴿أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾: لن نقضي عليه ذلك؛ وعليه: فهو من القدر والقضاء، و«قَدَر» بالتخفيف تأتي بمعنى «قدَّر» المضعفة، ومنه قوله – تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]. أي: قدره الله»(٢).

هذا، ولما استقر يونس في بطن الحوت نادى ربه مستغيثًا، معترفًا بذنبه، قال –تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، «الفاء فصيحة عاطفة على محذوف مقدر، أي: كان ما كان من التقام الحوت إياه، فنادى في الظلمات»(٣)، يقول الطبري: «ولا شك أنه قد عنى بإحدى الظلمات: بطن الحوت، وبالأخرى: ظلمة البحر، وفي الثالثة اختلاف، وجائز أن تكون تلك الثالثة: ظلمة الليل، وجائز أن تكون كون الحوت في جوف حوت آخر، ولا دليل يدل على أي ذلك من أي، فلا قول في ذلك أولى بالحق من التسليم لظاهر التنزيل»(٤).

هذا، وكان نداؤه هو قوله: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]

---

(١) «القرآن العظيم»، لابن كثير، (٥/٣٣٦)، باختصار.

(٢) «أضواء البيان»، للشنقيطي، (٤/ ٢٤٠).

(٣) «التفصيل في إعراب آيات التنزيل»، لعبد اللطيف الخطيب، (٩/ ١٥٣).

(٤) «جامع البيان»، للطبري، (١٦/ ٣٨٣).

فبدأ عليه السلام بالتوحيد، ثم التنزيه، والتسبيح والثناء، ثم الاستغفار، والإقرار على نفسه بالذنب.

فهو -عليه السلام «شهد ما حصل من التقصير في حق الإلهية، بما حصل من المغاضبة، وكراهة إنجاء أولئك، ففي ذلك من المعارضة على الفعل لحب شيء آخر ما يوجب تجريد محبته لله وتألهه له أن يقول: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ﴾، فكمل يونس صلوات الله عليه تحقيق إلهيته، ومحو الهوى الذي يتخذ إلهًا من دونه فلم يبق له صلوات الله عليه وسلامه عند تحقيق قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ إرادة تزاحم إلهية الحق، بل كان مخلصًا لله الدين؛ إذ كان من أفضل عباد الله المخلصين»[1].

ولما نزه الله -عز وجل- عن الشريك أثبت كمال العظمة لله -عز وجل: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾. أي: «أنزهك تنزيهًا لائقًا بك من أن يعجزك شيء، أو أن يكون ابتلائي بهذا بغير سبب من جهتي»[2].

يقول ابن تيمية: «ففي قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تبرئة من الظلم، وإثبات العظمة الموجبة له براءته من الظالم، فإن الظالم إنما يظلم لحاجته إلى الظلم، أو لجهله، والله غني عن كل شيء، عليم بكل شيء، وهو غني بنفسه، وكل ما سواه فقير إليه، وهذا كمال العظمة»[3].

ثم اعترف بحقيقة حاله، مفصحًا عن طلب النجاة، فقال: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يقول القرطبي: «يريد فيما خالف فيه من تَرْك مداومة قومه، والصبر عليهم، وقيل: في الخروج من غير أن يؤذن له»[4].

وفي هذا «مبالغة في اعترافه بظلم نفسه؛ حيث أسند إليه فعل الكون الدال على رسوخ الوصف، وجعل الخبر أنه واحد من فريق الظالمين، وهو أدل على

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (٢٧/ ٣٨٠).

(٢) «إرشاد العقل السليم»، لأبي السعود، (٦/٨٢).

(٣) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية، (١٠/ ٢٥٠).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن»، للقرطبي، (١١/٣٣٤).

أرسخية الوصف، ... وتقديمه الاعتراف بالتوحيد مع التسبيح، كَنَّى به عن انفراد الله –تعالى– بالتدبر، وقدرته على كل شيء»[1].

وهذا الدعاء العظيم يتضمن ثلاثة أمور، وهي:

١- ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾: إثبات انفراده –سبحانه– بالألوهية الذي يستحق أن يعبد وحده، المتضمن كمال تدبيره، وقدرته، وحكمته.

٢- ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾: إثبات تنزيه الله –تعالى– من كل نقص وعيب.

٣- ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: المبالغة في الاعتراف بالظلم الذي يتضمن طلب المغفرة من خلاله وصف حاله.

يقول ابن القيم –رحمه الله: «وأما دعوة ذي النون فإن فيها من كمال التوحيد والتنزيه للرب –تعالى، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب، والهم، والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله –سبحانه– في قضاء الحوائج، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله، وسلب كل نقص، وعيب، وتمثيل عنه، والاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع، والثواب، والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله، واستقالته عثرته، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلى ربه، فهاهنا أربعة أمور قد وقع التوسل به: التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف»[2].

هذا، ولما كان توسله –عليه السلام– بهذه الأمور الأربعة فرع عليه بقوله – تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾، «السين والتاء في ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ للمبالغة في الإجابة»[3]، والمعنى: استجبنا «ليونس دعاءه إيانا؛ إذ دعانا في بطن الحوت، ونجيناه من الغم الذي كان فيه بحبسنا له في بطن الحوت، وغمه بخطيئته وذنبه»[4].

---

(١) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (١٧/ ١٣٢) باختصار.

(٢) «زاد المعاد في هدى خير العباد»، لابن القيم، (١٨٥/٤).

(٣) انظر: «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (١٧/ ١٣٣).

(٤) «جامع البيان»، للطبري، (١٦/ ٣٨٥).

هذا، ولما بين -سبحانه- كرمه مع أنبيائه أخبر بعموم ذلك، فقال -سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ «تذييل، والإشارة بـ(كذلك) إلى الإنجاء الذي أنجى به يونس. أي: مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين من غموم يحسب من يقع فيها أن نجاته عسيرة، وفي هذا تعريض للمشركين من العرب بأن الله منجي المؤمنين من الغم والنكد الذي يلاقونه من سوء معاملة المشركين إياهم في بلادهم»[(١)].

نتبين مما سبق: أن المتدبر في قصة يونس -عليه السلام- يظهر له مدى الإعجاز القرآني في اختيار الألفاظ، ودلالة استعمال الكلمة القرآنية مكان الأخرى بحسب السياق الذي يقتضيه، والذي يخدم مقصد السورة، فمثلا:

١ - استعمال لفظ «ذا النون» وفي سورة القلم «صاحب الحوت»، وكلاهما لقبان ليونس -عليه السلام، وأما الفرق بينهما فهو: أن لفظ «ذا» أشرف من «صاحب»، وقد اقتضى ذلك سياق الحدث في القصة؛ لمناسبة مقصد السورة، فمقصد السورة - كما بينا- «بيان وحدة الرسالات من خلال التذكير بحال الرسل، ودعوتهم إلى التوحيد، وعناية لله -تعالى- بهم»، والحدث في قصة يونس -عليه السلام- هنا هو في محنته في بطن الحوت، والتجائه إلى الله، والندم على ما صدر منه، واستجابة الله -تعالى- له، فناسب هنا لفظ «ذا النون». أي: من له شأن الحوت وقصته، وأما معنى صاحب: «أي: الذي يصحب غيره، أي: يكون معه في بعض الأحوال، أو في معظمها، وإطلاقه على يونس لأن الحوت التقمه، ثم قذفه؛ فصار (صاحب الحوت) لقبًا له»[(٢)].

ولذلك قال الله -تعالى- في مقام المدح «وذا النون»، وفي مقام النهي عن الاستعجال وعدم الصبر على قومه قال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾[القلم: ٤٨].

نقل الثعالبي عن السهيلي في التفريق بين هذين اللفظين، فقال: «لما ذكر الله -تعالى- يُونس هنا في معرض الثناء قال: وذا النون، وقال في الآية الأخرى:

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (١٣٣/١٧).

(٢) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور (١٠٥/٢٩).

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ (القلم: ٤٨)، والمعنى واحد، ولكن بين اللفظين تفاوتٌ كثير في حسن الإشارة إلى الحالتين، وتنزيل الكلام في الموضعين والإضافة بذي أشرف من الإضافة بصاحب؛ لأنَّ قولك: ذو يضاف بها إلى التابع، وصاحبُ يُضافُ بها إلى المتبوع»[(١)].

٢- أن دعاء يونس -عليه السلام- يخدم مقصد السورة؛ فقوله -تعالى: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ يتضمن البراءة مما سوى الله من الآلهة الباطلة، سواء كان ذلك اتباع النفس، أو غير ذلك مما يعبد من دون الله، وهذا ما جاءت به دعوة جميع الرسل -عليهم السلام، وهي الدعوة إلى توحيد الله -تعالى- وعبادته.

٣- أن في استجابة الله -تعالى- لدعاء يونس -عليه السلام- مناسبة لمقصد السورة، ذلك أنه لما كلف الله -تعالى- أنبياءه بالدعوة إلى توحيده وعبادته تكفل لهم بالعناية والحفظ، فلم ينفكوا من الدعاء؛ ليقينهم بالله -تعالى.

٤- وعد وبشارة للدعاة، ولكل مؤمن وقع في ضيق وهم وغم أن الله -تعالى- سينجيه منها لإيمانه، كما فعل بيونس -عليه السلام، قال -عليه الصلاة والسلام: **«دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له»**[(٢)].

يقول ابن عاشور: «فكان أسلوبه -القرآن- قاضيا للوطرين، وكان أجل من أسلوب القصاصين في سوق القصص لمجرد معرفتها؛ لأن سوقها في مناسبتها يكسبها صفتين: صفة البرهان، وصفة التبيان»[(٣)].

(١) «الجواهر الحسان»، للثعالبي (٤/٩٧).

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع الكبير»، أبواب كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ (٥/٤٨٤)، (ح: ٣٥٠٥).

(٣) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور (١/٦٤).

المبحث الثاني

مناسبة قصة يونس -عليه السلام- الواردة في سورة «الصافات» لمقصدها العام

وفيه مطلبان:

المطلب الأول

المقصد العام للسورة

مقصد سورة «الصافات»:

المقصد العام للسورة هو إثبات الوحدانية لله -تعالى.

يقول البقاعي: «مقصودها الاستدلال على آخر «يس»، من التنزه عن النقائض، اللازم منه رد العباد للفصل بينهم بالعدل، اللازم منه الوحدانية، وذلك هو المعنى الذي أشار إليه وسمها بـ«الصافات»، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦﴾ [الصافات: ١٦٥، ١٦٦]»[١].

يقول سعيد حوى مبينا ذلك: «تبدأ سورة الصافات بقوله -تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾ [الصافات: ١- ٤]، إذن فالسورة تبدأ بقسم، وجواب للقسم، ومن جواب القسم نعلم موضوع السورة الرئيسي، وهو وحدانية الله -عز وجل»[٢].

والمقصد العام للسورة تجده حاضرًا عند الوقوف على أهم الموضوعات التي اشتملت عليها السورة، وهي:

١- سوق الدلائل على انفراده -سبحانه وتعالى- بخلق المخلوقات العظيمة، قال -تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾ [الصافات: ١- ٤].

يقول ابن القيم: «أقسم -سبحانه- بذلك على توحيد ربوبيته وإلهيته، وقرر

---

(١) «نظم الدرر»، للبقاعي، (٣٤٠/٦).

(٢) «الأساس في التفسير»، لسعيد حوى، (٤٦٧٩/٨).

توحيد إلهيته بتوحيد ربوبيته، فقال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ [الصافات: ٤، ٥]، من أعظم الأدلة على أنه إله واحد، ولو كان معه إله آخر لكان الإله مشاركًا له في ربوبيته، كما شاركه في إلهيته، تعالى- الله عن ذلك علوًّا كبيرًا»[١].

«وكثيرًا ما يقرر -تعالى- توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية؛ لأنه دالٌّ عليه، وقد أقر به المشركون في العبادة، فيلزمهم بما أقروا به على ما أنكروه»[٢].

٢- تفنيد مزاعم المشركين وإنكارهم للبعث:

لما كان مقصود السورة الأساسي الوحدانية لله -تعالى: «ودل -سبحانه- بهذه المذكورات على وجوده، وكمال علمه، وتمام قدرته على الأفعال الهائلة، وبديع حكمته اللازم منه إثبات وحدانيته ... فكان ما دونها من الأفعال أولى، سبب عن ذلك لإثبات الحشر»[٣]، قال -تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾ [الصافات: ١١].

٣- إثبات البعث وما يعقبه من الجزاء:

لما بين -تعالى- في الآيات المتقدمة ما يدل من الأدلة على إمكان البعث أردف -سبحانه- بالإخبار عما يدل على وقوع يوم القيامة، وما يحل بالمشركين إذا ثبتوا على شركهم وإنكارهم للبعث والحساب، قال -تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾ [الصافات: ٢١].

قال -تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصافات:٢٢- ٢٣].

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن»، لابن قيم الجوزية، (٢٨٥/١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي ص(٧١٥).

(٣) «نظم الدرر»، للبقاعي (٢٤٤/٦).

ثم تحدثت الآيات عن وصف حال المؤمنين، وإكرامهم من خلال تحقق صفة العبودية والإخلاص فيهم، «بقوله -سبحانه- مستثنيًا من ضمير المنذرين، «﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ۝٧٣ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٧٤﴾ [الصافات: ٧٣، ٧٤]. أي: الذين أخلصهم له، فأخلصوا هم أعمالهم، فلم يجعلوا فيها شوبًا لغيره»[١].

وبهذا تتقرر حقيقة ترتبط بالمقصد الأساسي للسورة: أن الجزاء من جنس العمل.

٤- دعوى الأنبياء إلى التوحيد، ونصر الله -تعالى- لهم، ووصف ما حل بالأمم التي كذبت الرسل:

لما كان مقصود السورة العام إثبات الوحدانية لله -تعالى، ذكر في هذه السورة ست قصص من قصص الرسل مناسبة في سياقها مع مقصد السورة العام، من حيث إن «في كل قصة منها خاصية لها شبه بحال الرسول ﷺ مع قومه، وبحاله الأكمل في دعوته، ففي القصص كلها عبرة، وأسوة، وتحذير، ويجمعها كلها مقاومة الشرك، ومقاومة أهلها»[٢].

٥-بيان فساد معتقدات المشركين:

«لما ذكر أقاصيص الأنبياء -عليهم السلام- عاد إلى شرح مذاهب المشركين، وبيان قبحها وسخافتها، ومن جملة أقوالهم الباطلة أنهم أثبتوا الأولاد لله -سبحانه وتعالى، ثم زعموا أنها من جنس الإناث، لا من جنس الذكور»[٣]، قال -تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ۝١٤٩ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠﴾ [الصافات: ١٤٩- ١٥٠]، والمتدبر في هذه الآيات يجد أنها تخدم مقصود

(١) «نظم الدرر»، للبقاعي، (١٦/ ٢٤٤).

(٢) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور (٢٣/ ١٢٩).

(٣) «نظم الدرر»، للبقاعي، (٦/٣٤٥).

السورة من حيث إنها تناقش المشركين في قضايا التوحيد الأساسية، ويتقرر بعد المناقشة تنزيه الله –تعالى– عن كل ما لا يليق بذاته –سبحانه، قال –تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾، وهو مقتضى مقصد السورة العام، وهو إثبات الوحدانية لله –تعالى.

وبعد أن استعرضت أهم الموضوعات ومناسبتها لمقصد السورة العام سيتضح بعد ذلك مناسبة قصة يونس –عليه السلام– لمقصد السورة.

المطلب الثاني

المناسبة بين قصة يونس –عليه السلام– في سورة الصافات ومقصدها العام

قال –تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ * فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٨].

مناسبة قصة يونس لما قبلها من الآيات:

قصة يونس –عليه السلام: «القصة السادسة، وهو آخر القصص المذكورة في هذه السورة، وإنما صارت هذه القصة خاتمة للقصص، لأجل أنه لما لم يصبر على أذى قومه، وأَبَقَ إلى الفُلك؛ وقع في تلك الشدائد، فيصير هذا سببًا لتصبُّر النبي –صلى الله عليه وسلم– على أذى قومه»(١).

يقول البقاعي: «ولما أكمل –سبحانه– ما أراد من أمور من كان على أيديهم هلاك في الدنيا، أو في الآخرة؛ ختم بمن آل أمر قومه إلى سلامة، وإيمان، ونعمة، وإحسان؛ تغليبًا للترجية على التأسية والتعزية»(٢). وليكون أمام المخاطبين مثالين

---

(١) «مفاتيح الغيب»، للرازي، (٢٦/ ١٤٢).

(٢) «نظم الدرر»، للبقاعي، (٦/٣٤٠).

حيين لعاقبتين مختلفتين، فيختاروا أيًّا شاءوا.

مناسبة قصة يونس لما بعدها من الآيات:

تعتبر قصة يونس –عليه السلام– السادسة في قصص الأنبياء –عليهم السلام– في السورة، والتي هي في مجملها توطئة لمناقشة المشركين في افتراءاتهم الباطلة.

يقول البقاعي مبينًا ذلك: «ولما كان الذي سبق ادعاؤه أمرين: **أحدهما:** أن هؤلاء المنذرين يسارعون في اقتفاء آثار آبائهم في الضلال. **والثاني:** أن أكثر الأولين ضلوا، وسيقت دليلًا شهوديًّا على الثاني هذه القصص الست، التي ما اهتدى من أهلها أمة بكمالها إلا قوم يونس –عليه السلام؛ كان ذلك سببًا للأمر بإقامة الدليل على ضلال هؤلاء، تبعًا لآبائهم، بأمر ليس في بيان الضلال أوضح منه، فقال– متهكمًا بهم، مخصصًا الأمر به ﷺ إشارة إلى عظم هذه النتيجة، وأنه لا يفهمه حق فهمها سواه ﷺ، فقال –تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾[الصافات: ١٤٩]»(١).

مناسبة قصة يونس –عليه السلام– لمقصد السورة:

جاءت قصة يونس –عليه السلام– في هذا الموضع بمعنى جديد لم يكن قد ذكر في القصة من قبل، وهذا المعنى إذا أضيف إلى القصة أعطتنا صورة متكاملة لجزئيات تفرقت في مواطنها وفق مقتضى الحال، فقد جاء سرد الحدث في قصة يونس –عليه السلام– مناسبا لمقصد السورة، من حيث إن يونس نبي مرسل، وقد بعث النبي محمد ﷺ لتصديقه في الدعوة إلى التوحيد، قال –تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الصافات: ١٣٩].

يقول السعدي: «هذا ثناء منه –تعالى– على عبده ورسوله يونس بن متى،

---

(١) «نظم الدرر»، للبقاعي، (٦/٣٤٠).

كما أثنى على إخوانه المرسلين بالنبوة، والرسالة، والدعوة إلى الله»(١).

وقد جاءت الآية بمؤكدين: الأول: (إن)، والثاني: (اللام)؛ «لأن ما يأتي من ذكر الإباق ربما أوهم شيئًا في أمره»(٢).

كما تظهر المناسبة أن القصة جاءت تسلية للرسول ﷺ على استكبار المشركين عن كلمة التوحيد وقولهم في حقه ﷺ إنه شاعر مجنون، قال -تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾[الصافات: ٣٦].

«فذكر الله -تعالى- من أمر يونس -عليه السلام- ما يُعرف منه صعوبة أمر الرسالة، وشدة خطبها، وثقل أمرها، وشدة عنايته -سبحانه- بالرسل -عليهم السلام، وأنه ما اختارهم إلا عن علم، فهو لا يقولهم، وإن اجتهدوا في دفع الرسالة؛ ليزدادو ثباتًا لأعبائها، وقوة في القيام بشأنها، فقال: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ »(٣). أي: حين «هرب، وأصله الهرب من السيد، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه حسن إطلاقه عليه»(٤)، «ولم يذكر الله ما غاضب عليه، ولا ذنبه الذي ارتكبه؛ لعدم فائدتنا بذكره، وإنما فائدتنا بما ذكرنا عنه أنه أذنب، وعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه الملام، وقيض له ما هو سبب صلاحه، فلما أبق لجأ»(٥) ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ﴾: «وهو السفينة، ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾: وهو المملوء من الحمولة الموقر»(٦) من «الركاب والأمتعة، فلما ركب مع غيره والفلك شاحن ثقلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكأنهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك،

(١) «تيسير الكريم الرحمن»، للسعدي، (ص ٧١٧)
(٢) انظر: «نظم الدرر»، للبقاعي، (٣٤٠/٦)، بتصرف.
(٣) «نظم الدرر»، للبقاعي، (٦/ ٣٤١).
(٤) «إرشاد العقل السليم»، لأبي السعود، (٢٠٥/٧).
(٥) «تيسير الكريم الرحمن»، للسعدي، (ص٧١٥).
(٦) «جامع الطبري»، للطبري، (١٩/ ٦٢٤).

فاقترعوا على أن من قرع وغلب، ألقي في البحر عدلًا من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمرًا هيأ له أسبابه»(١).

﴿ فَسَاهَمَ ﴾. أي: فقارع، ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾. يعني: فكان من المسهومين المغلوبين(٢).

﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ١٤٢ ﴾. أي: فابتلعه الحوت، ومعنى ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾: وهو مستحق اللوم، يقال: قد ألام الرجل: إذا أتى ما يلام عليه من الأمر، وإن لم يلم، ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ﴾: يعني: يونس ﴿ كَانَ مِنَ ﴾ المصلين لله قبل البلاء الذي ابتلي به من العقوبة بالحبس في بطن الحوت، ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٤٤﴾، يقول: لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة يوم يبعث الله فيه خلقه محبوسًا، ولكنه كان من الذاكرين لله قبل البلاء، فذكره الله في حال البلاء، فأنقذه، ونجاه.

وقوله: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ ﴾، يقول: فقذفناه بالفضاء من الأرض من حيث لا يواريه شيء من شجر ولا غيره»(٣)، ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾. «أي: عليل جدًّا مما ناله من جوف الحوت، بحيث إنه كان كالطفل ساعة يولد، وهو إذ ذاك محمود غير مذموم، بنعمة الله التي تداركته، فكان مجتبى، ومن الصالحين»(٤). وقد عبر الله – سبحانه وتعالى– بلفظ سقيم دون مريض؛ لأن: «السَّقْمُ، والسُّقم: المرض المختص بالبدن. والمرض يكون في البدن وفي النفس، نحو: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: ١٠](٥)

ولما كان سقمه الجسدي شديدًا نبه عليه بأداة الاستعلاء، فقال: ﴿وَأَنۢبَتْنَا

(١) «تيسير الكريم الرحمن»، للسعدي، (ص ٧١٥).

(٢) «جامع البيان»، للطبري، (٦٢٥/١٩).

(٣) انظر: «جامع البيان»، للطبري، (٦٢٧/١٩).

(٤) «نظم الدرر»، للبقاعي، (٣٤١/٦).

(٥) «المفردات»، للراغب الأصفهاني، ص ٤٥.

﴿عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ١٤٦﴾، والمعنى: «وأنبت على يونس شجرة من الشجر التي لا تقوم على ساق، وكل شجرة لا تقوم على ساق، كالدباء، والبطيخ، والحنظل، ونحو ذلك؛ فهي عند العرب يقطين»(١)، وهذا من لطف الله بأنبيائه.

ثم لطف به لطفًا آخر، وامتن عليه بمنن عظمى، وهو أنه آمن قومه، وصرف عنهم العذاب، وأرسله «إلى مائة ألف أو يزيدون. أي: مائة ألف من الناس، أو يزيدون على مائة ألف، وذكر عن ابن عباس أنه كان يقول معنى قوله: ﴿أَوْ﴾: بل يزيدون(٢).

«والمراد هو الوصف بالكثرة»(٣)؛ «لأن الترجية في كثرة الأتباع أقر للعين، وأسر للقلب، وإفهامًا؛ لأن الزيادة واقعة»(٤).

ثم قال -تعالى: ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ١٤٨﴾. أي: «أن أولئك الأقوام لما آمنوا أزال الله الخوف عنهم، وآمنهم من العذاب، ومتعهم إلى حين. أي: إلى الوقت الذي جعله الله أجلًا لكل واحد منهم»(٥).

وفي ذلك درسٌ من دروس التوحيد التي خدمت مقصد السورة، أن التوحيد الخالص هو طريق النجاة من عذاب الله -تعالى، وهذا يؤكد أن العمل الصالح الخالص لوجه الله -تعالى- يرفع صاحبه إذا عثر، كما أن فيها درسًا لكفار قريش قبل فوات الأوان، مبينًا ذلك ابن عطية، فيقول: «وفي قوله -تعالى: ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ١٤٨﴾، مثال لقريش، أي: إن آمنوا أَمِنوا، كما جرى لهؤلاء، ومن هنا حسن انتقال القول والمحاورة إليهم بقوله -تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾، فإنما يعود

---

(١) «جامع البيان»، للطبري، (١٩/٦٣٣).
(٢) المصدر السابق، (١٩/ ٦٣٦).
(٣) «إرشاد العقل السليم»، لأبي السعود، (٧/٢٠٦).
(٤) «نظم الدرر»، للبقاعي، (٦/٣٤١).
(٥) «مفاتيح الغيب»، للرازي، (٢٦/١٤٥).

ضميرهم على ما في المعنى من ذكرهم»[١].

كما أن فيها درسًا في أهمية الاستمرار في الدعوة إلى توحيد الله -تعالى- وعدم اليأس.

يقول ابن عاشور: «وليعلم الناس أن الله إذا اصطفى أحدًا للرسالة لا يرخص له في الفتور عنها، ولا ينسخ أمره بذلك؛ لأن الله أعلم حيث يجعل رسالاته»[٢]، فكانت القصة «تسلية للنبي ﷺ فيما يلقاه من ثقل الرسالة بأن ذلك قد أثقل الرسل من قبله، فظهرت مرتبة النبي ﷺ في صبره على ذلك، وعدم تذمره، ولإعلام جميع الناس بأنه مأمور من الله -تعالى- بمداومة الدعوة للدين؛ لأن المشركين كانوا يلومونه على إلحاحه عليهم، ودعوته إياهم في مختلف الأزمان والأحوال»[٣].

فجاءت قصة يونس -عليه السلام- أثرًا من موعظة التحذير من الوقوع فيما وقع فيه يونس -عليه السلام.

هذا، ومحنة يونس عليه السلام حدث عظيم، ولأجله يقول النبي ﷺ: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متى**»[٤]، وقال -عليه الصلاة والسلام- أيضًا: «**من قال: أنا خير من يونس بن متى؛ فقد كذب**»[٥]، «والمعنى: نفي الأخيرية في وصف النبوءة. أي: لا يظن أحد أن فعلة يونس تسلب عنه النبوءة»[٦].

---

(١) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٤/٥٥٨).

(٢) المصدر السابق، (٢٣/١٧٨).

(٣) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٢٣/١٧٨)

(٤) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء -صلوات الله عليهم، باب: قول الله -تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾، (٤/ ١٥٣)، (ح: ٣٣٩٥)، «فتح الباري».

(٥) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، سورة «النساء»، باب: قوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، (٦/ ٥٠)، (ح: ٤٦٠٤)، «فتح الباري».

(٦) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٢٣/ ١٧٨).

المبحث الثالث

مناسبة قصة يونس -عليه السلام- الواردة في سورة «القلم» لمقصدها العام

وفيه مطلبان:

المطلب الأول

المقصد العام للسورة

المقصد الأساسي الذي تدور عليه سورة القلم إظهار علم النبي ﷺ، وكمال خلقه؛ تثبيتًا، وتأييدًا له بعد تطاول المشركين عليه.

يقول البقاعي: «مقصودها إظهار ما استتر، وبيان ما أبهم في آية: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الملك: ٢٩]، بتعيين المهتدي الذي برهن على هدايته حيازته العلم الذي هو النور الأعظم الذي لا يضل بمصاحبته بتقبل القرآن والتخلق بالفرقان الذي هو صفة الرحمن بقدر الإمكان الذي تصل إليه قوة الإنسان»(١).

ويقول ابن عاشور في معرض حديثه عن أغراض السورة: «إثبات كمالاته ﷺ في الدنيا والآخرة، وهديه، وضلال معانديه، وتثبيته»(٢).

والمقصد العام نجده حاضرًا عند الوقوف على أهم الموضوعات التي اشتملت عليها السورة وهي:

١- إظهار علم النبي ﷺ وخلقه تأييدًا له بعد تطاول المشركين عليه:

قال -تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ [القلم: ١- ٥]، وفي ذلك رفعة لقدر النبي ﷺ، وتثبيت لقلبه، ونهيه ﷺ عن طاعة رؤساء أهل مكة المكذبين ذوي الأخلاق الفاسدة، قال -تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ إلى قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى

---

(١) «نظم الدرر»، للبقاعي، (٢٠/ ٢٧٢).

(٢) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور (٥٨/٢٩).

ﵟٱلۡخُرۡطُومِ ١٦ﵞ [القلم: ٨-١٦]، وفي ذلك «تهييج للتصميم على معاصاتهم»[١]، تثبيتًا، وتقوية لقلب النبي ﷺ.

٢- بيان عاقبة جحود النعم:

ولما وصف الله -تعالى- حال المشركين بالصفات الذميمة، من الكفر، والتمرد، وجحود نعم الله -تعالى- أعقب بذكر قصة أصحاب الجنة الذين «كانوا معروفين عندهم، شائع بينهم ذكرهم»[٢]، يذكرهم فيها بعاقبة جحود النعمة، ومنع الخير عن الغير، ويذكرهم بأن ما بين أيديهم من نعم المال والبنين هو ابتلاء لهم، كما ابتلي أصحاب الجنة قال -تعالى: ﵟإِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِﵞ [القلم: ١٥] إلى قوله -تعالى: ﵟكَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٣٣ﵞ [القلم: ٣٣].

٣- بيان حال المتقين، وعقوبة المكذبين للرسول ﷺ، وتوبيخهم ومحاجتهم:

وذلك في قوله -تعالى: ﵟإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٣٤ﵞ [القلم: ٣٤] إلى قوله: ﵟأَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ٤٧ﵞ [القلم: ٤٧].

ففي الآيات «أقام الله الحجة على المكذبين هاهنا بتبيانه أنه لا صلة لهم بأمر الغيب حتى يكذبوا، وأن رسول الله ﷺ لا يطلب منهم أجرًا حتى يستثقلوا الإيمان، وبهذا استكملت السورة نقاش المكذبين، فأقامت الحجة على أن محمدًا رسول الله، وعلى أنهم يستأهلون العذاب، وعلى أنه لا مبرر لهم في عدم الإيمان»[٣].

٤- الأمر بالصبر والاستمرار في تبليغ الرسالة:

ولما أبطل الله -تعالى- حججهم الواهية أمر الله -تعالى- نبيه بالصبر على أذاهم، والاستمرار على دعوتهم، ونهى عن الضجر والعجلة التي وقع فيها يونس -

(١) «إرشاد العقل السليم»، لأبي السعود، (١٣/٩).

(٢) انظر: فتح القدير للشوكاني (٢٧١/٥).

(٣) «الأساس في التفسير»، لسعيد حوى، (٦/ ٦٦٦٠).

عليه السلام، فقال الله -تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨].

كما بين الله -سبحانه وتعالى- أنه عاصمُهُ -عليه الصلاة والسلام- من شرورهم، وما هذا القرآن الذين يزعمون أنه دلالة جنونه إلا ذكر للعالمين، قال -تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم: ٥٢].

وبعد أن استعرضنا أهم الموضوعات ومناسبتها لمقصد السورة العام سيتضح بعد ذلك مناسبة قصة يونس -عليه السلام- لمقصد السورة.

المطلب الثاني

مناسبة قصة يونس -عليه السلام- لمقصد السورة

قال -تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٤٨ - ٥٠].

مناسبة قصة يونس -عليه السلام- لما قبلها:

المتدبر لقصة يونس -عليه السلام- يلمس انسجاما تاما بين القصة والآيات التي وردت قبلها، فهي: «تفريع على ما تقدم من إبطال مزاعم المشركين ومطاعنهم في القرآن والرسول ﷺ، وما تبعه من تكفل الله لرسوله ﷺ بعاقبة النصر، وذلك أن شدته على نفس النبي ﷺ من شأنها أن تدخل عليه يأسًا من حصول رغبته ونجاح سعيه، ففرَّع عليه تثبيته، وحثه على المصابرة، واستمراره على الهدي، وتعريفه بأن ذلك التثبيت يرفع درجته في مقام الرسالة؛ ليكون من أولي العزم، فذكره بمثل يونس -عليه السلام، إذ استعجل عن أمر ربه، فأدبه الله، ثم اجتباه، وتاب عليه، وجعله من الصالحين، تذكيرًا مرادًا به التحذير»(١).

مناسبة قصة يونس -عليه السلام- لما بعدها:

لما ختم الله -تعالى- السورة بقصة يونس -عليه السلام؛ حثا على الصبر

(١) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور (١٠٤/٢٩).

وعدم الضعف؛ لأن الحال أن المشركين «إنما يبالغون في أذاك؛ لتضجر؛ فتترك ما أنت فيه، قال عاطفًا على هذا المقدر، مخبرًا له بما في صدورهم من الإحن عليه، وفي قلوبهم من الضغائن له؛ ليشتد حذره من إدهانهم، مؤكدًا؛ لأن من يرى ادهانهم يظن إذعانهم؛ ويُنكر لمبالغتهم فيه طُغيانهم، فقال الله –تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ...﴾ [القلم: ٥١]»(١).

مناسبة قصة يونس –عليه السلام– لمقصد السورة:

سيقت قصة يونس لتناسب مقصد السورة العام، متضمنة حِكمًا وفوائد، وليس مجرد سرد روائي، وإنما لمعنى أدعى في هذه السورة، استدل عليه بتلك القصة غير المعنى الذي سيقت له في السور الأخرى.

ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب المقصد العام مع مراعاة المعنى الأصلي للقصة.

يقول البقاعي: «ولأجل اختلاف مقاصد السور تتغير القصص وألفاظها بحسب الأسلوب المفيد للدلالة على ذلك»(٢).

فالمتأمل لقصة يونس –عليه السلام– يلمس انسجاما تاما بين القصة ومقصد السورة، يقول الله –تعالى– لنبيه ﷺ مثبتا له على المصابرة: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾. أي: «فاصبر يا محمد لقضاء ربك وحكمه فيك، وفي هؤلاء المشركين بما أتيتهم به من هذا القرآن، وهذا الدين، وامض لما أمرك به ربك، ولا يثنيك عن تبليغ ما أمرت بتبليغه تكذيبهم إياك، وأذاهم لك»(٣).

وحكم الله –تعالى– في رسله يتمثل في ثلاثة أمور، كما بينها الماتريدي، حيث قال: «أحدها: ألا يدعوا على قومهم بالهلاك، وإن اشتد أذاهم من ناحيتهم حتى يؤذن لهم. والثاني: ألا يفارقون قومهم، وإن اشتد بهم البلاء إلا بإذن الله –

---

(١) «نظم الدرر»، للبقاعي (١١٦/٨).

(٢) « مصاعد النظر للإشراق على مقاصد السور»، للبقاعي (١٥٢/١).

(٣) «جامع البيان»، للطبري، (٢٣/ ١٩٩).

تعالى. والثالث: ألا يقصروا في التبليغ وإن خافوا على أنفسهم.

ثم من وراء هذا عليهم أمران: أحدهما: أنهم أمروا ألا يغضبوا إلا لله -تعالى. والثاني: ألا يحزنوا لمكان أنفسهم إذا آذاهم قومهم، بل يحزنوا لمكان أولئك القوم؛ إشفاقًا عليهم منه، ورحمة بما يحل عليهم من العذاب بتكذيبهم الرسل، فهذا هو حكم ربهم»(١).

ولما كان حاصل قصة يونس- على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام- أنه استثقل بالرسالة؛ لما فيها من الأمور الشديدة من معالجة الخلق، فامتُحن؛ كان سببًا لقبوله ذلك، ثم كان سبب إسلام قومه إدناء العذاب منهم، وتقريب غشيانه لهم؛ أشار له بقصته إلى أنه يراد إعلاؤه ﷺ وعلى سائر الأنبياء، وإعلاء أمته على سائر الأمم بما يحتاج إلى صبر على ما يستثقل من ضرٍّ، أو أمرٍ شديد مَرٍّ»(٢)، ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾.

هذا وقد جاءت قصة يونس -عليه السلام- هنا باقتضاب، فلم «تبين الآية من هو صاحب الحوت، ولا نداءه وهو مكظوم، ولا الوجه المنهي عنه أن يكون مثله، وقد بين -تعالى- صاحب الحوت في «الصافات» في قوله -تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠﴾ إلى قوله: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢﴾ [الصافات: ١٣٩- ١٤٢].

وأما النداء فقد بينه -تعالى- في سورة «الأنبياء» عند قوله -تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]»(٣).

(١) «تأويلات أهل السنة»، للماتريدي، (١٠/ ١٥٧).

(٢) «نظم الدرر»، للبقاعي، (٨/١١٦).

(٣) «أضواء البيان»، للشنقيطي، (٨/٢٥٤).

وأما الوجه المنهي عنه فهو: "التشبه به في السبب الذي أفضى به إلى هذه المناداة، وهي مغاضبته التي أفضت به إلى حبسه في بطن الحوت، وشدة ذلك عليه حتى نادى ربه وهو مكظوم»[١]. أي: «إذ نادى وهو مغموم، قد أثقله الغم وكظمه»[٢].

هذا، ولما كان يونس –عليه السلام– لا يرجى لمثله سراح، امتن الله –سبحانه– عليه بالنجاة، فقال: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ...﴾ إلخ. «أي: لولا أن تدارك صاحب الحوت نعمة من الله– وهي توفيقه للتوبة، فتاب الله عليه– ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾. أي: لأُلقي من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات، ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾. أي: يُذم، ويُلام بالذنب الذي أذنبه، ويُطرد من الرحمة»[٣].

فقوله: ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ «هو جواب (لولا)، والمنفي هو الذم، لا نبذه بالعراء، فإنه قد قال في «الصافات»: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ [الصافات: ١٤٥]، فالمعنى: لولا رحمة الله لنبذ بالعراء وهو مذموم، لكنه نبذ وهو غير مذموم»[٤].

والآية «استئناف بياني، ناشئ عن مضمون النهي من قوله: ﴿﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ...﴾ إلخ؛ لأنه يتضمن التحذير من الوقوع في كرب من قبيل كرب يونس، ثم لا يدري كيف يكون انفراجه»[٥].

«وتنكير (نعمة) للتعظيم لأنها نعمة مضاعفة مكررة[٦]، خارقة للعادة.

ثم أخبر الله –تعالى– بنعمة عظيمة أخرى امتن بها على يونس –عليه السلام، فقال: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾. أي: «اصطفاه، واختاره

---

(١) «تفسير ابن القيم»، لابن قيم الجوزية، (٥٥٢).

(٢) «جامع البيان»، للطبري (٢٣/ ١٩٩).

(٣) «فتح القدير»، للشوكاني، (٥/٢٧٧).

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل»، لابن جزي، (٢/٤٠٣).

(٥) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٢٩/١٠٥).

(٦) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور،(٢٩/١٠٥).

لنبوته، ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. يعني: من المرسلين العاملين بما أمرهم به ربهم، المنتهين عما نهاهم عنه»(١).

«والمقصود هنا: أن ما تضمنته قصة (ذي النون) مما يلام عليه كله مغفور، بدله الله به حسنات، ورفع درجاته، وكان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع ... فالاعتبار بكمال النهاية، لا بما جرى في البداية، والأعمال بخواتيمها»(٢).

هذا وقد وامتثل نبينا محمد ﷺ أمر ربه، فصبر لحكم ربه صبرا دالًا على كمال خلقه، صبرًا لا يدركه أحدًا من العالمين، وقد كان منه ﷺ مصداق ذلك فيما وقع له يوم أحد، لما شُج وجهه، وجرى الدم منه، فقال: «**اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون**»(٣)، وهذا أقصى درجات الحلم، والصبر، والصفح، وأعظم درجات الخُلق الكريم الذي أعانه الله عليه، قال -تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ٢٧]. «أي وما يحصل صبرك إلا بتوفيق الله إياك، وفي هذا إشارة إلى أن صبر النبي ﷺ عظيم؛ لأنه لقى من أذى المشركين أشد مما لقيه عموم المسلمين، فصبره ليس كالمعتاد؛ لذلك كان حصوله بإعانة من الله»(٤)، فظهرت مناسبة ذكر طرف من قصة يونس -عليه السلام، والتي جاءت بأوجز لفظ وأبلغه بمقصد السورة واضح، وهو: إظهار علم النبي ﷺ وكمال خلقه؛ تثبيتًا، وتأييدًا له بعد تطاول المشركين عليه.

---

(١) «جامع البيان»، للطبري، (٢١٠/٢٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية، (١٠/ ٢٩٩) باختصار.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الأنبياء -صلوات الله عليهم، (٤/ ١٥٣)، (ح: ٣٤٧٧).

(٤) «التحرير والتنوير»، لابن عاشور، (٣٣٧/١٤).

الخاتمة

من أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث ما يأتي:

١- أن تكرار ذكر قصة يونس -عليه السلام- كان لأغراض يقتضيها المقام، ولمقصود السورة الدور الأعظم في اصطفاء الحادثة من قصصه -عليه السلام، وفيما بلغته هذه الأحداث من المناسبة البليغة لأهدافها.

- ففي سورة الأنبياء كان مقصدها دعوة الأنبياء إلى التوحيد، فجاء دعاء يونس -عليه السلام- في بطن الحوت مناسبًا لمقصد السورة؛ لما فيه من كمال التوحيد والتنزيه للرب -تعالى، قال -تعالى: ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

- وفي سورة «الصافات» كان مقصودها إثبات الوحدانية لله -تعالى، فجاءت قصة يونس -عليه السلام- مناسبة لمقصد السورة، حيث بينت أن التوحيد الخالص هو طريق النجاة من عذاب الله -تعالى، قال -تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨﴾ [الصافات: ١٤٧ - ١٤٨].

- وكذلك في سورة «القلم» مقصودها إظهار علم النبي ﷺ، وكمال خلقه؛ تثبيتا، وتأييدا له بعد تطاول المشركين عليه، فناسب ذلك النهي عن التشبه بيونس -عليه السلام- في السبب الذي أفضى به إلى هذه المناداة، قال -تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ [القلم: ٤٨].

٢- أظهرت الدراسة بعض سمات الإعجاز في القصص القرآني، كسمة التناسب بأنواعه، وخاصة مناسبة القصة لما قبلها ولما بعدها، وبالمقصود العام لسور الأنبياء، والصافات، والقلم.

٣- أكدت الدراسة أن قصة يونس -عليه السلام- وردت في القرآن الكريم لخدمة المقصد العام، ولم تكن من قبيل سرد الحادثة.

التوصيات:

أوصي الباحثين بالاهتمام بالقصص القرآني، وذلك من خلال الوقوف على القصة، ومناسبتها لمقصد السورة؛ لإظهار سمة من سمات الإعجاز القرآني في القصص.

كما أوصي بالتوجه بدروس التدبر إلى الجانب المقاصدي الذي يبرز غايات القرآن من القصص وجوانبها العملية.

هذا، وأسأل الله -تعالى- أن يجعل هذا العمل خالصًا، صائبًا، وأن يحقق فيه النفع والبركة.

وصلى الله على نبينا محمد، وآله، وصحبه أجمعين.

* * *

Conclusion

The most important results:

1. The story of Younes (Peace Be Upon Him) is mentioned many times, because the concept demands to narrate it. The Quranic Surra had selected this story especially among his stories because of the varied values that can be taken from this story.
2. The study showed that there is a miracle in the Quranic narration. There is a harmony among this story and the previous and the following story. It is the general concept of Surra.

The recommendations:

1. We should pay great attention for the Quranic stories to know the value of narrating this incident and the concept of Sura and what are the miracles of Quran in narrating this stories.

فهرس المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**

١- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، لأبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢- **الأساس في التفسير**، لسعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط٦، ١٤٢٤هـ.

٣- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد أمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

٤- **البرهان في علوم القرآن**، للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م.

٥- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، للفيروزآبادي تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦م.

٦- **البيان القصصي في القرآن**، د. إبراهيم عوضين، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، ١٩٩٠.

٧- **تأويلات أهل السنة**، محمد بن حمد الماتريدي، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م.

٨- **التبيان في أقسام القرآن**، لابن قيم الجوزية، دار الفكر، بيروت.

٩- **التسهيل لعلوم التنزيل**، لابن جزي، تحقيق: د. عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ١٤١٦هـ.

١٠- **تفسير التحرير والتنوير**، للطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١١- **تفسير القرآن العظيم**، لابن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة، الرياض، ط١، ١٩٩٧م.

١٢- **التفصيل في إعراب آيات التنزيل**، لعبد اللطيف الخطيب، مكتبة الخطيب، الكويت، ٢٠١٥م.

١٣- **تيسير الكريم الرحمن**، للسعدي، مؤسسة الرسالة، دمشق، ط٢، ٢٠١٥م.

١٤- **جامع البيان في تأويل القرآن**، للطبري، تحقيق: د.عبد الله التركي، دار هجر، الرياض، ٢٠٠١م.

١٥- **الجامع لأحكام القرآن**، للقرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب العلمية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م.

١٦- **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، للثعالبي، تحقيق: محمد علي معروض، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤١٨هـ.

١٧- **زاد المعاد في هدى خير العباد**، لابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٤، ١٩٨٦.

١٨- **زهرة التفاسير**، لمحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة.

١٩- **علم مقاصد السور**، لمحمد الربيعة، مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر، الرياض، ١٤٣٢هـ.

٢٠- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، لابن حجر العسقلاني، ت: عبد العزيز ابن باز، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م.

٢١- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، للشوكاني، تحقيق: د.عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، القاهرة، ١٩٩٤م.

٢٢- **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

٢٣- **مجموع الفتاوى**، لابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٥.

٢٤- **المحرر الوجيز**، لابن عطية، تحقيق: عبدالسلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤١٣هـ.

٢٥- **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**، للبقاعي، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٨٧.

٢٦- **معجم اللغة العربية المعاصرة**، لأحمد مختار، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٩هـ.

٢٧- **مقاييس اللغة**، لابن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، القاهرة، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢٨- **مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٢٩- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، للبقاعي دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م.

٣٠- **وحدة النسق في السورة فوائدها وطرق دراستها**، لرشيد الحمداوي، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد٣، ١٤٢٨هـ.

* * *

References:

- Fath al-Qadeer, the combining between the technician of the novel and the know-how from the science of interpretation, Dar Al-Wafaa, Cairo, 1994 AD.
- Arab Tongue, Ibn Manzoor, Dar Sader, Beirut, 3rd Edition, 1414 AH.
- Ibn Faris, Dar Al-Fikr, Cairo, 1399 AH - 1979 AD.
- Keys to the Unseen, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut, 1st Edition, 1421 AH, 2000 AD.
- Al-Durar systems in relation to verses and suras, by Al-Buqai, Dar Al-Kutub Al-Alami, Beirut, 2nd Edition, 2002 AD.
- The Holy Quran.
- Guiding a sound mind to the virtues of the generous, Abu Al Saud, House of Revival of Arab Heritage, Beirut.
- Interpretation of Liberation and Enlightenment, Tahar Ibn Ashour, Tunisian Publishing House, Tunis, 1984 AD.
- Interpretation of the Great Qur’an, written by: Ibn Kathir, Dar Taibah, Riyadh, 1st Edition, 1997 AD.
- Al-Bayan Mosque in Tawil of the Qur’an, Ibn Jarir al-Tabari, Dar Hajar, Riyadh, 2001 AD.